

المغرب المخائف

هل تصدق أن المغرب خائف ؟ كل الدلائل تشير إلى ذلك . والعجيب أنه كلما زاد من قوته العسكرية الرهيبة ، وأقام حول مدنه شبكات المصواريخ النووية ، وملأ ترسانته بالآلاف الأطنان من الأسلحة الفتاكة ، فإنه يزداد خوفاً ، ويمتلئ قلقاً ، ويشعر بأن الأرض ستنفجر من تحته ، والسماء ستقع على رأسه ، وأن الناس الذين يسرون في الشوارع يحملون في جيوبهم قنابل ضده ، وأن الذين يغلقون على أنفسهم أبواب بيوتهم يترصدون به ، وأن جيرانه يتوقعون سقوطه ، كما أن الدول التي تبعد عنه آلاف الكيلومترات تسعى للانقضاض عليه .

من أين يجئ هذا الخوف ؟ من إحساسه بأنه قد ظلم الآخرين ، ومن شعوره العميق بالندم على ما ارتكبه وما زال يرتكبه في حقهم ، وإنك لتعجب من أن المغرب الذي يتشدد بالحرية والديمقراطية لا يرضيه أبداً أن تطالب المجتمعات النامية بهما . وأن المغرب الذي يدعو إلى تطبيق مبادئ حقوق الإنسان بحذافيرها على مواطنيه هو أول من يتجاهل هذه الحقوق في البلاد النامية . وأن المغرب الذي يدعو إلى تحسين وسائل معيشة الإنسان ، والحفاظ على كرامته هو الذي يمتص جهد الدول النامية ، فيحصل على ثرواتها الطبيعية بأرخص الأثمان ثم يبيع لها منتجاته الصناعية بأعلى الأسعار . فإذا تفضل وأقرضها لكى تواصل تنميتها أو تحسن من معدل إنتاجيتها ضاعف من فوائد القروض ، وأرهقها في أسلوب سداد الديون ، وكلما عجزت زاد من ضغطه عليها ، واستغلاله لها .

إذن سياسة المغرب نفسها هي التي تؤدي به إلى الخوف من أولئك الذين ظلمهم ، لأنه يخشى أن يأتى اليوم الذي يدرك فيه هؤلاء ما فعله بهم ، فيثوروا في وجهه ، ويقولوا له : قف عند هذا الحد ، وحسبك ما فعلته بنا ! وهذا ما يجعله مستمرا في مراقبتهم بالأقمار الصناعية ، وبالتجسس ، وبالتصنعت على أحاديثهم ، وحتى على أفكارهم . وهكذا على الرغم من قوته المكتملة قد أصبح يقضى النهار متحسبا لوقوع كارثة ، ويسهر الليل متوقعا لحدوث صاعقة .

هل من حل ؟ نعم بكل تأكيد . حين يدرك المغرب معنى الإنسانية بمفهومها الحقيقي ، الإنسانية التي توجب على الإنسان مهما تعاضمت قوته ، وتضخمت ثروته أن يتعامل مع أخيه الإنسان بقدر من الاحترام والاعتبار والتعاطف ، بدلا من الاحتقار والإهمال والتباغض . وبالطبع ليس إدراك هذا المعنى أمرا سهلا ، فهو يتطلب الإصغاء لصوت العقل ، والاهتداء بنور الحكمة . وقيام المفكرين وقادة الرأي في المغرب بإشاعة مفاهيم التعارف بين البشر ، والتعاون بين الشعوب من أجل مستقبل أفضل للجميع ، يستفيد منه المغرب قبل أن تستفيد منه الدول النامية ، حتى ينال وهو قريب العين ، بدلا من هذا القلق الذي يسيطر عليه ، وذلك الخوف الذي يدفعه إلى إقامة حائط ذووى حوله ، يتكلف مليارات الدولارات ، تحسبا لطائرة تعبر في سمائه ، أو صاروخ يمر عليه ، وفى توقعى أنه سيعمل بعد ذلك على أن يقيم ساترا آخر يحرسه من عيون الحاسدين ، وغطاء يحميه من أفكار الآخرين !